

دور ابن دريد في صناعة المعجم

الدكتور رمضان رضائي^١ الدكتور يدالله رفيعي^٢

الملخص

للصناعة المعجم في كل اللغات، منها العربية، غاية الأهمية. و قد سبق المسلمون غيرهم بهذا العمل، و منهم الخليل بن احمد الفراهيدي و منهجه منهج صوتي، رتب فيه المفردات ترتيباً صوتياً أطلقوا عليه اسم معجم العين، و لصعوبة طريقته في ترتيب الحروف حاول اللغويين تيسير تلك الطريقة فيما بعد، فمن أشهر من جدّد في طريقة العين، ابوبكر بن دريد في معجمه المسمى بـ «جهمرة اللغة» و لهذا فهو يُعدّ صاحب طريقة جديدة، هو أوّل كتاب لغوي رُتب على حروف أبجدية و أورد ابن دريد فيها اشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين و هذه من احدى ميزاتهما. و لهذا بلغ ابوبكر ابن دريد ذروة اللغة و جعل اللغويون الجهمرة كمصدر هام في تدوين معجماتهم اللغوية و أوردوا آراءه في هذه المعجمات. ادخل ابن دريد على منهج العين تغييرات عديدة محاولة منه تيسير طريقته المعقدة و كل هذا يدل على مدى اثر ابن دريد في الدارسين واللاحقين.

المفردات الرئيسية: ابن دريد، المعجم، جهمرة اللغة، علم اللغة.

المدخل

إن صناعة المعجم في كل اللغات، ومنها العربية، في غاية الأهمية و ترجع اولى محاولات صناعة المعجم الى لغويو العصر الاسلامي من النحاة او الادباء أو المفسرين. قيل إن اول من ألف معجماً في اللغة العربية هو خليل بن احمد و سمي كتابه «العين». لكن لصعوبة طريقته في ترتيب الحروف، حاول اللغويين بعده تيسير تلك الطريقة لتكون أسهل للمطلعين على المعجم، ومن أشهر من جدّد في طريقة العين أبوبكر بن دريد في معجمه المسمى بجهمرة اللغة، ولذا فهو يُعدّ صاحب طريقة جديدة. أدخل ابن دريد على منهج العين تغييرات عديدة محاولة منه لتيسير طريقته المعقدة.

br_Rezaei@yahoo.com

^١ . استاذ مساعد في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة «آزاد اسلامي» بتريز

^٢ . استاذ مساعد في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة «آزاداسلامي» بتريز

قد عنى بصناعة المعجم و اللغويين كثيرا و لكن البحث عن ابن دريد و آثاره قليل جدا. منه ما كتب باللغة العربية كـ «الابداع عند ابن دريد» لفتحيه صلاح، المطبوعة في الاردن سنة ٢٠٠٨ و «جهود ابن دريد في الصرف و الاشتقاق» لأحمد العطية، جامعة الملك سعود سنة ٢٠٠٩ و منه ما كتب بالفارسية تحت عنوان «ابن دريد» لأذرتاش آذر نوش قد طبعت في «مركز الموسوعة الاسلامية الكبيرة» ولكن دوره في صناعة المعجم وجهوده الفنية في هذا المضمار، هذا ما يعنى به هذا المقال معتمدا على الوثائق العلمية.

حياة ابن دريد:

يعد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الذي ولد عام ٢٢٣هـ بالبصرة، من أبرز علماء القرنين الثالث والرابع الهجريين. وكان أبوه الحسن بن دريد من الرؤساء، وقد نشأ والده تنشئة أهله لأن يتصدر في العلم ستين سنة، وعد بذلك - كما تذكر كتب الطبقات - رأس أهل العلم، والمقدم في حفظ اللغة والأنساب، وأشعار العرب. (حموي، ١٨، التاريخ، ص ١٢٧) وكان ابن دريد حجة في اللغة ذا حافظه قوية، وعقلية نادرة، وله قصص في ذلك. وكان شاعراً مُفلقاً، حيث ذكر ياقوت الحموي بأنه اشتهر بـ «أشعر العلماء، وأعلم الشعراء» (المصدر نفسه، ١٨، ص ١٢٩).

أخذ عن كثير من علماء عصره كأبي حاتم السجستاني، وأبي الفضل الرياشي، وأبي عثمان الأشنانداني وغيرهم. وأخذ عنه أبو سعيد السيرافي، وأبو الفرج الأصبهاني، وابن خالويه وغيرهم الذين بلغوا عددهم الى ٦٤ تلميذا. (سنوسي، ١٩٨٤، صص ٢١-٣٠ و سوري، ١٣٤٥، ص ٥-٦) وكان واسع الرواية لم ير أحفظ منه؛ وكانوا يقرؤون عليه دواوين العرب فيسابق إلى إتمامها، من حفظه. وله شعر رائق. قال بعض المتقدمين: ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء. قال المسعودي في مروج الذهب: «كان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا في الشعر. وانتهى في اللغة؛ وقام مقام الخليل بن أحمد فيها، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين. وشعره أكثر من أن يحصى» (حموي، ١٨، ص ١٣٦) و من تأليفه: وكتاب السرج واللحام، وكتاب الأنواء، وكتاب المجتنى وكتاب الخيل الكبير والصغير، وكتاب الملاحن و نظم حازم القرطاجني مقصورته تقليدا من ابن دريد و ايضا نظم شارح الالفية، المكودي مقصورة في مدائح النبوية وكتاب رواد العرب، وكتاب الوشاح وصفة السحاب و الغيث و فوائد الاخبار والمقصورة و ديوان الشعر والمقتبس وغير ذلك. (آذرنوش، ١٣٦٩، ص ٥٠٢) ومن جيده قصيدته المشهورة التي مدح بها، الشاه الامير ابو العباس إسماعيل بن ميكال و ولديه و قيل لها اشتملت على نحو الثلث من المقصور. وفيها كل مثل سائر، وخبر نادر؛ مع سلاسة ألفاظ، ورشاقة أسلوب، وانسجام معان يأخذ بمجامع القلوب. (مقدسي، ١٩٧٠، ص ٢٥٦-٢٦٨؛ صيف العصر العباسي

ج٢، ص٤٢٥) كما خلف ثروة ضخمة من كتب اللغة أشهرها الجوهرة، والاشتقاق. وتوفي سنة ٣٢١، ورثاه جحظة البرمكي بقوله:

فقدت باين دريد كل فائدة لما غدا ثالث الأحجار والترب
و كنت أبكي لفقد الجود منفردا فصرت أبكي لفقد الجود والأدب

(ابن خلكان، لتاريخ، ٤/٣٢٨)

المعجم و علم الفهرسة:

من مراحل العمل اللغوى هى خطوات علمية متقنة قائمة على تخطيط لغوى شامل مع تقسيمات علمية منظمة لكلّ المفردات اللغوية، سميت «بالمعجم» أو «القاموس» أو «الموسوعة اللغوية» أو «اللسانية» و كان أشهرها و أولها كتاب العين للخليل بن احمد الفراهيدى رائد علم المعجمات اللغوية على الإطلاق فى العالم أجمع، حيث بدأ العمل بتخطيط علمى أصواتى شامل لكلّ مفردات العربية و أكمله تلامذته. و هو أول معجم شامل لكلّ مفردات اللغة العربية فى تاريخ المعجمات مطلقاً. (الحسينى، ١٣٨٤، ص١٤)

أما كلمة «المعجم» فمن مادة «عجم» الحرف و الكتاب — عَجَمًا: أزال إمامه بالنقط و الشكل. «المعجم»: ديوان مفردات اللغة مرتب على حروف المعجم «ج» معجمات و معاجم. و حروف المعجم: حروف الهجاء. (مذكور و لجنة معه، ١٤١٢هـ، ص٥٨٦). يقوم علم الفهرسة على ترتيب ألفاظ معينة حسب نظام معين للدلالة على مواضع ورودها و حصرها و تقديمها للقارئ، ليكون الفهرست أشبه بالدليل و الكاشف.

و أصل اللفظ فارسي أدخله المسلمون فى العربية و قالوا: فهرست و فهرس، بكسر الفاء و الراء فيهما، و عرفوه بانه الكتاب الذي تُجمع فيه الكتب. و قد اقترن اسم الفهرست باسم المعجم أو القاموس لدى البعض، و كلاهما عمل تنظيمي و ترتيبى، رأى أهل الثقافة و الفكر ضرورته و أهميته فى جمع الكلمات و رصدها.

و يفترق الفهرست عن المعجم فى خصائصه، فالمعجم يجشد المفردات و يرتبها بترتيب معين و يشرحها ضمن هذا الترتيب. أما الفهرست فهو عمل مساعد للقارئ فى العثور على مواضع المفردات بأسرع وقت. و قد يكون الفهرست لفظياً و موضوعياً و يتخذ أشكالاً متعددة أسماها المحدثون الفهارس الفنية أو التحليلية، و ليس المعجم بهذا. و قد يكون المعجم مفردة من المفردات الفهرست و داخلًا فى إطاره، إلا أن الاصل واحد و هو التنظيم و الترتيب.

و قد سبق المسلمون غيرهم بهذا العمل، و منهم الخليل بن احمد الفراهيدي و منهجه منهج صوتي، رتب فيه المفردات ترتيباً صوتياً أطلقوا عليه اسم معجم العين، و تبعه العلماء الآخرون حسب

تسلسلهم الزمنيّ و منهجهم التصنيفيّ. أُطلق على منهج الخليل نظام الترتيب العينيّ. و قد أخذ به القالي في البارع و الصاحب بن عبّاد في المحيط، و هو نظام يعتمد مخارج الحروف. و لما كان هذا النظام صعباً على القارئ لم يستمرّ وضع المعاجم على هذا الغرار، لذا جاء نظام التقفية القائم على ترتيب الموادّ بحسب أواخر حروفها تسهيلاً للشعراء في اختيار القوافي. و قد عُرف هذا المنهج في كتاب الصحاح للجوهريّ و القاموس المحيط للفيروز آبادي و لسان العرب لابن منظور و مجمع البحرين للطريحيّ.

و قد وجد العلماء صعوبة و مشكلات في نظام التقفية و خصوصاً في المفردات المتعلّة الآخر التي قد تأخذ وقتاً من القارئ، لذا فكّر العلماء في وضع النظام الهجائيّ الجذريّ، فألّف الزمخشري أساس البلاغة على هذا النظام الذي يعتمد أول الكلمة فثانيها فثالثها بعد إسقاط الزوائد منها و ردها إلي أصلها الثلاثي أو الرباعي. و قد شاع هذا الترتيب إلي زماننا هذا لسهولة، و عليه الآن أكثر المعجمات الحديثة. و قد رأي البعض أن يكون ترتيب المعجم بحسب وضع المفردة دون حذف الزوائد أو ردها لأصولها المشتقة منها، و هو ترتيب هجائيّ نُطقيّ. و هذا الترتيب عرفه العلماء القدامي في كتاب نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن لمحمد بن عزيز السجستانيّ المتوفّي ٣٣٠ و يبدو أنّ كراع النمل المتوفّي ٣١٠ أخذ بهذا الترتيب. و قد رأوا أن يكون هذا الترتيب هو الأفضل و الأسهل و خاصة لغير الناطقين بالعربية، و لكي يستوعب مصطلحات العلوم و الفنون و الألفاظ المعربة الحديثة عند تدوين معجم متخصص في شتّى العلوم إلا أنّ الترتيب الهجائيّ الجذريّ الذي يعتمد أصل المفردة دون الزوائد الملحقة بها هو القبول لدى الجمهور أهل الأدب و العلم، و رُتب كتاب العين، و جمهرة اللغة، و عليه ينبغي ترتيب معجمات التراث.

صناعة المعجم

لفظة معجم: أخذت لفظة معجم من عبارة «حروف المعجم» التي عرفت بها حروف الهجاء و هي الحروف التي تتميز عن سواها بالنقط. على أن أحدا لا يدري يقينا متى ظهرت لفظ معجم. و يبدو أنّها اطلقت في ميادين أخرى، ثم انتقلت من بعد الي اللغة. (الشلقاني، ١٩٧١، ص٤-٥) و إن قيل كيف بدأت صناعة المعجم لابد أن نقول: إن عددا من الباحثين العرب اهتموا بعلوم اللغة منذ بداية الحركة العلمية في إطار الدولة الإسلامية، فكانت لهم جهودهم في مجالات الأصوات و بناء الكلمة و بناء الجملة و المفردات. و كان المشتغلون بعلوم اللغة يصنفون إلى مجموعتين: تهتم المجموعة الأولى ببنية اللغة، و تهتم المجموعة الثانية بمفردات اللغة و دلالاتها. و قد وُصِفَ مجال البحث عند المجموعة الأولى بأنه " النحو " أو " علم العربية "، كما فعل سيبويه في كتابه المسمي بالكتاب. بينما وصف مجال بحث المجموعة الثانية

بأنه " اللغة " أو "علم اللغة"، أو "فقه اللغة" أو " متن اللغة " كما فعل الخليل في كتابه المسمى بالعين. وإلى جانب هذه المصطلحات، ولكل منها تاريخ مستقل، وُجِدَت محاولات لوصف علوم اللغة مجتمعة، فسميت " علم اللسان " أو " علوم اللسان العربي " أو " علوم الأدب " أو " العلوم العربية "، كما وُجِدَت إلى جانب هذا، محاولات لبيان ترابط هذه الأفرع وإيضاح النسق الذي يتخذه كل منها في إطار البحث اللغوي العام.

و أما الذين جمعوا اللغة في كتبهم ففعلوا هذا في مراحل ثلاث تطورت بإتجاه المعجم الشامل: المرحلة الأولى: جمع العرب في أثنائها الكلمات من غير أن يتبعوا طريقة محددة. فقد كان الأصمعي مثلاً يقصد الأعراب فيسمع منهم اللفظ الغريب و يدونه في ألواح إلى أن اشتهر اسمه بالغريب(المرجع نفسه، ص٦٩) و كان الذين نقلت اللغة عنهم و اقتدي بهم أخذ اللسان العربي عنهم من بين القبائل العرب، هم: قيس و اسد و تميم ثم هذيل و بعضها كنانة و بعض الطائيين.(السيوطي، لا تاريخ، ج١ ص٢١١)

المرحلة الثانية: جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد، كالالفاظ المتعلقة بالمطر، أو بالدواب أو بالغيم أو ما إلى ذلك مما شكل فيما بعد ما يسمى «معاجم المعاني».

المرحلة الثالثة: جمع كل الكلمات العربية بطريقة معينة. و هذه هي مرحلة المعاجم المجنسة. على هذا تنقسم المعاجم الى نوعين: معاجم الالفاظ و يقال لها المعاجم المجنسة و هي تناول الفاظ اللغة كلها بلا تمييز و معاجم المعاني و يقال لها ايضا المعاجم المبوية و هي جمع الالفاظ المتصلة بموضوع واحد فقط، كموضوع المطر أو الجياد أو شواذ اللغة أو ما إلى ذلك. في هذا المجال يقول شوقي ضيف(٢٠٠٤، ج٢، ص١٢٠): و من يمعن النظر فيما سجلت كتب طبقات اللغويين و النحويين لمولاء العلماء من مصنفات يجدها تتطور في موضوعات جزئية مفردة مثل كتاب الفرس و كتاب الابل الى تاليف المصنفات المطولة حتى لتتحول إلى معاجم لغوية على شاكلة كتاب الغريب المصنف لأبى عبيد.

اول معجم من المعاجم المجنسة «كتاب العين» الذي صنفه الخليل بن احمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٥هـ. يعد هذا الكتاب اول معجم كامل الالفاظ عند العرب و قد قيل إن الخليل لم يضع الكتاب كله و فقد روي عن السيرافي أنه «عمل اول كتاب العين المعروف المشهور الذي به يتيهأ ضبط اللغة (السيوطي، لا تاريخ، ج١، ص٥٥٧).

إن الخليل جمع الكلمات المكونة من حروف واحدة في مكان واحد مراعيًا بذلك الناحية الصوتية؛ فهو يبدأ بأبعد الحروف من هذه الناحية. ولما كانت حروف الحلق هي الأبعد مخرجاً فهو يبدأ بها، ثم يثني باللسانية، وهي التي تليها في المخرج، ثم بالشفوية، ثم اختتم بحروف العلة. فمثلاً: الكلمات الثلاثية يكون لها ستة تقلبيات، ويبدأ فيها بأبعدها مخرجاً. مثال ذلك: الكلمات التي تكون من الباء

والراء والعين لها تقلبيات ستة ويبدأ بأبعدها مخرجاً وهي العين، ثم بالراء؛ لأنها لسانية، ثم بالياء؛ لأنها شفوية. هكذا: ١- عرب ٢- عبر ٣- رعب ٤- ريع ٥- بعر ٦- برع.

وهذا ما يعرف بالتقلبيات الصوتية، فالخليل وضع الحروف على حسب مخرجها؛ فبدأ بأبعدها مخرجاً وهو العين فسمى معجمه بذلك. وهذا تأليفه للحروف: ع ح هـ خ غ/ق ك/ج ش ض/ص س ز/ط د ت/ظ ث ذ/ر ل ن/ف ب م/و ي/ همزة. (للمزيد الاطلاع يرجى المراجعة الى مقدمة تحقيق في كتاب العين للدكتور مهدي المخرومي و الدكتور ابراهيم السامرائي)

هذا وقد تبع الخليل بن أحمد في هذه الطريقة علماء كثيرون، من أشهرهم: أبو على القالي ت٣٥٦هـ في معجمه (البارع)، وأبو منصور الأزهري ت٣٧٠هـ في معجمه (التهذيب)، وابن سيده ت٤٥٨هـ في معجمه (المحكم).

و قد علل تسمية كتابه بالعين في مقدمته حيث جاء فيها: قال الخليل فأقصى الحروف كلها العين، ثم الحاء، و لولا بحة في الحاء لأشبهت العين، لقرب مخرجها من العين، ثم الهاء و لولا هنة في الهاء — و قال مرة همة — لأشبهت الحاء، لقرب مخرج الهاء من الحاء. فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من بعض، ثم الحاء و الغين في حيز واحد كلهن حلقية ثم القاف و الكاف لهويتان و الكاف أرفع. (ابن احمد فراهدى، خليل، ١٩٦٧، ص٦٤)

و لما كانت طريقة الخليل صعبة، و تحتاج إلى معرفة الأصوات، مما قلل الاستفادة من المعاجم التي تأخذ بهذه الطريقة، فأخذ ابن دريد يتبع طريقة أخرى في التقلبيات حسب أول الحروف ترتيباً من الناحية الأبجدية؛ فالمادة الثلاثية وتقليباتها الستة توضع تحت أول الحروف ترتيباً من هذه الناحية. فانفرد بهذه الطريقة في كتابه الجمهرة. الذي يمثل نظاماً جديداً من التأليف مختلفاً عن نظام الخليل وما تبعه من المعاجم التي سارت وفق مدرسة التقلبيات الصوتية.

المدرسة الدريدية في المعجم

قسمت المعاجم اللغوية - حسب طريقة ترتيب الألفاظ فيها، وجمعها في أبواب مرتبة ترتيباً معيناً - إلى أقسام ثلاثة، سموها: المدارس المعجمية. ومعرفة هذه المدارس تعين على الاستفادة من تلك المعاجم، حيث تُعرّف طريقة مؤلفيها، ومناهجهم.

المدرسة الأولى: هي مدرسة التقلبيات الصوتية بنوعيتها، الصوتية، والأبجدية. والمدرسة الثانية: مدرسة القافية والمدرسة الثالثة: مدرسة الأبجدية العادية. لما لم يكن هنا مجال لشرح هذه المدارس كلها، فسنتصر على شرح مدرسة الجمهرة على سبيل الإيجاز.

يعد ابن دريد من أشهر مَنْ حدّد في طريقة العين في معجمه، ولذا فهو صاحب طريقةٍ جديدةٍ حيث أدخل على منهج العين تغييراتٍ عديدةً محاولةً منه تيسير طريقته المعقّدة، وجاءت تغييراته على النحو التالي:

الأساس الأول : تقسيم المعجم إلى الأبنية قسّم الكتاب إلى الأبنية التالية بالنظر إلى حروفها الأصول :

- أ- الثنائيّ المضاعف وما يلحق به .
- ب- الثلاثيّ وما يلحق به .
- ج- الرباعيّ وما يلحق به.
- د- الخماسيّ وما يلحق به .

وأتبع هذه الأبواب أبواباً للفيف والنوادر . أي أن ابن دريد جعل تقسيم الأبنية هو الأساس الأول في معجمه، وليس كما جاء في العين، ففي العين قسّم كتابه إلى حروف، وكلّ حرف قسّمه إلى أبنية، أمّا ابن دريد فقد عكس ما في العين، ولذا ففي كل معجمه بناء واحد للثنائيّ المضاعف، وواحد للثلاثي .. وهكذا، وتحت كل بناء جميع الحروف العربية.

الأساس الثاني : تقسيم كلّ بناء إلى حروف قسّم كلّ بناء إلى أبواب طبقاً للحروف على الترتيب الألفبائيّ، فبدأ بحرف الهمزة، ثم حرف الباء ثم التاء وهكذا بقية الحروف على الصورة التالية :

أ / ب / ت / ث / ج / ح / خ / د / ذ / ر / ز / س / ش / ص / ض / ط / ظ / ع / غ / ف / ق / ك / ل / م / ن / هـ / و / ي .

بدأ كلّ بابٍ بالحرف المعقود له مع ما يليه في الترتيب الألفبائيّ، فمثلاً في باب (التاء) بدأ بها مع التاء، ثمّ بها مع الجيم، وبعد نهاية الحروف تأتي التاء مع الهمزة، ثمّ التاء مع الباء . وهنا يختلف الهمزة عن العين لكونه رتّب الحروف على الترتيب الألفبائيّ وليس الترتيب الصوتي، وهذا من مواطن التحديد في الهمزة .

الأساس الثالث : تقليب الكلمات قلب الألفاظ التي تقع تحت كل حرف على الصور المستعملة في العربية .

البحث عن كلمة في الهمزة يحتاج الى المحاولات التالية:

- ١- تجريد الكلمة من الحروف الزائدة لنعرف الحروف الأصلية .
- ٢- تحديد البناء الذي تدخل تحته الكلمة (الثنائيّ أو الثلاثيّ أو الرباعيّ أو الخماسي)، ثم الاتجاه إلى ذلك البناء في الهمزة .
- ٣- البحث عن الكلمة تحت أول حروفها على الترتيب الألفبائيّ، ثم الذي يليه، ومع الكلمة بقية تقليباتها.

فعلى سبيل المثال حين يبحث عن كلمة «أكل» في الجمهرة فيجدها الباحث في باب الثلاثي تحت حرف همزة ثم الكاف لأن همزة أول الحروف على الترتيب الابجدية ثم الكاف ثم اللام، ونجد معها المستعمل من تقلبياتها (ألك، كالأ، كأل، لكأ، لأك). أو «قعد» فهي في باب الثلاثي تحت حرف الدال مع العين لأن الدال أولها على الترتيب الابجدي ثم العين ثم القاف، أي أنها تحت (دعق) ومعها المستعمل من تقلبياتها مثل (دقع، قده، قعد، عقد، عدق) وكذلك «شد» في باب الشائي تحت حرف الدال لأنه أول حروفها على الترتيب الألفبائي، ومعها تقلبياتها المستعملة و«لعب» في باب الثلاثي تحت حرف الباء لأنه أولها على الترتيب الألفبائي، ومعها تقلبياتها . (رزق) في باب الثلاثي تحت حرف الراء، ومعها تقلبياتها .

هدف ابن دريد من املاء الجمهرة

أما الهدف فواضح من مقدمة الجمهرة، ويكاد ينحصر في أمرين:

١- جمع الألفاظ الشائعة المألوفة والبعد عن الوحشي المستنكر.

٢- جمع الألفاظ بطريقة ميسرة خلاف ما كانت عليه طريقة الخليل.

قال ابن دريد في مقدمته: "قد ألف أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفرهودي كتاب العين، فأتعب من تصدى لغايته، وعنى من سما إلى نهايته، فالمنصف له بالغلب معترف، والمعاند متكلف، وكل من بعده له تبع، أقر بذلك أم جحد، ولكنه -رحمه الله- ألف كتابه مُشاكلاً لثُقب فهمه، وذكاء فطنته، وحدة أذهان أهل دهره.

وأملينا هذا الكتاب والنقص في الناس فاش، والعجز لهم شامل، إلا خصائص كدراري النجوم في أطراف الأفق، فسَهّلنا وعره، ووطأنا شأزه، وأجرينا على تأليف الحروف المعجمة؛ إذ كانت بالقلوب أعقب، وفي الأسماع أنفذ، وكان علم العامة بما كعلم الخاصة. و طالبها من هذه الجهة بعيدا من الحيرة مشفيا على المراد. (ابن دريد، ١٤٢٦ق، ٢٣/١) وفي سبب تسمية هذا الكتاب يقول أيضا في مقدمته: «وألغينا المستنكر الوحشي، واستعملنا المعروف، و إنما أعرناه هذا الاسم (الجمهرة) ؛ لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب، وأرجأنا الوحشي المستنكر". (المصدر نفسه، ٢٤/١) قال السيوطي : "وقال بعضهم: أملى ابن دريد الجمهرة في فارس، ثم أملاها بالبصرة وبيغداد من حفظه، ولم يستعن عليها بالنظر في شيء من الكتب إلا في همزة واللفيف؛ فلذلك تختلف النسخ، والنسخة المعول عليها هي الأخيرة، وآخر ما صح نسخة أبي الفتح عبيدالله بن أحمد بن محمد النحوي المعروف بِحَجَجْ؛ لأنه كتبها من عدة نسخ وقرأها عليه". (السيوطي، ١٩٨٦، ٩٤/١) وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات، ومنها طبعة دار صادر بيروت وتقع في أربعة مجلدات.

منهج ابن دريد في صناعة المعجم و فضله على منهج الخليل

يعد معجم الجوهرة ثاني معجم شامل في العربية بعد كتاب العين، وقد حاول ابن دريد أن يخالف الخليل في ترتيب المواد، فابتكر نظاماً جديداً للتقليبات وهو قلب المادة حسب حروفها ترتيباً أبجدياً. وهو في هذا قد سلك مسلكاً جديداً في ترتيبه للمواد المعجمية، ولم يتبعه في هذا أحد من أصحاب المعاجم من بعد. ولهذا يعده بعض الباحثين ممثلاً لمدرسة جديدة هي مدرسة التقليبات الأبجدية.

أما في غير ذلك فقد فُحَّحَ لهجاً لا يختلف عن منهج الخليل في معجم العين. فقد تبع منهج خليل الأصواتي، ابن دريد في كتابه الجوهرة مستعملاً هذه التقليبات الست لسائر المفردات اللغوية و مشيراً إلى التسلسل الكمي في علم بنية الكلمة و المفردات الغريبة، حيث أشار إلى المفردة اللغوية ذات الحرفين أو الثلاثة أو الأربعة أو الخمسة، و لكثرة التشابه بين نصوص الخليل في كتاب العين و نصوص ابن دريد في الجوهرة عابه نفظويه. (مقدمة الجوهرة)

ولذلك يمكن أن يوجز المنهج الذي سار عليه ابن دريد فيما يلي:

١- أرجع الكلمات إلى حروفها الأصلية، فجرد الكلمة من الزوائد، وأرجع المقلوب إلى أصله، وشأنه في هذا شأن جميع المعاجم.

٢- اتبع نظام التقليبات للكلمة، ولكنها التقليبات الأبجدية؛ فإذا تحدث -على سبيل المثال- عن (ب ر ك) تحدث بعدها عن جميع تقاليبها وهي: (ب ك ر) و(ر ب ك) و(ر ك ب) و(ك ب ر) و(ك ر ب) وهكذا في كل المواد؛ حيث يقلبها حسب التقليب الأبجدي لا التقليب الصوتي. وهذه أسهل من طريقة الخليل.

٣- جعل الأبنية هي الأساس الأول في تقسيمه للمعجم، ثم قسمها إجمالاً كتقسيم الخليل، فهي عنده ثلاثية - والثلاثي يشمل الثنائي المضعف - ورباعية، وخماسية وملحقات بكل بناء.

أما تفصيلاً فقد اضطرب إلى حد كبير، فقد تنوعت الأبنية في الجوهرة تنوعاً كبيراً حتى إن بعض الباحثين حصروا في سبعة عشر باباً وهي: الثنائي الصحيح، والملحق ببناء الرباعي المكرر، والمعتل، والثلاثي الصحيح وما تشعب منه، وما اجتمع فيه حرفان مثلاً في أي موضع، وما عين الفعل منه أحد أحرف اللين، والثلاثي المعتل، وباب النوادر في الهمز، وباب اللفيف في الهمز، وأبواب الرباعي الصحيح، والرباعي الذي جاء فيه حرفان مثلاً، والرباعي الذي جاء على أوزان ضعف فيها الحرف الرابع، وما ألحق بالرباعي والخماسي والسداسي، واللفيف، وأبواب متفرقة من النوادر.

٤- أورد في مقدمته بحثاً لغوية مهمة، تعد مكملية لبحوث الخليل ولا تخلو من فوائد عظيمة في

مجال البحث اللغوي الحديث.

وقد بدأ هذه المقدمة باستنكار الطعن في السلف، والإزراء بالعلماء السابقين. ثم تحدث - في المقدمة أيضاً - عن ضرورة معرفة حروف المعجم، وما يأتلف منها وما لا يأتلف، وسبب ذلك. كما ذكر عدد الحروف وهي تسعة وعشرون حرفاً، ما يختص العرب بنطقه منها وما لا يختص وما لم يجيء من الحروف في لغة العرب.

أفرد باباً لصفة الحروف وأجناسها، وذكر أنها سبعة أجناس يجمعهن لقبان: المصمتة، والمذلقسة، مبيناً معنهما، وعرض لبقية الصفات، وهي الهمس والجر والشدة، شارحاً كل نوع، وذاكراً حروفه. وذكر مخارج الحروف وأجناسها، فبدأ بالحلقيّة، ثم حروف الفم، ثم المخارج الشفوية. كما ذكر أنه لا بد للباحث من معرفة الحروف الأصلية والزائدة، وعقد فصلاً في ذلك مبيناً مواضع زيادة الحروف. و عقد فصلاً للأبنية، وسماه باب الأمثلة، فذكر أنها ثلاثية، وأما عشرة ورباعية وخماسية، وذكر أبنية كل نوع والأمثلة التي وردت منه.

يفهم مما ذكره ابن دريد في المقدمة - أيضاً - أن أكثر الحروف استعمالاً عند العرب الواو والياء والهمزة، وأقلها استعمالاً - لتقلها على ألسنتهم - الطاء والذال، وأن الثلاثي أكثر الأبنية. ثم أخذ بعد ذلك في ذكر المواد اللغوية وشرحها.

مميزات معجم الجمهرة

جاء معجم الجمهرة بعد معجم العين مباشرة، وقد حاول فيه صاحبه أن يتحاشى ما وقع فيه الخليل في كتاب العين، ويمكن لإجمال مميزات الجمهرة فيما يلي:

١- ابتعد ابن دريد عن نظام التقلبيات الصوتية، واتبع نظام التقلبيات الأبجدية، وهي - على كل حال - أيسر.

٢- انفرد ابن دريد ببعض الصيغ كما انفرد ببعض الشواهد. مثلاً جاء في «أب»، والأب: المرعى. قال الله عز وجل: "وفاكهة وأبا". قال الشاعر:

حذمتنا قيس ونجد دارنا ولنا الأب بها والمكرع

والمكرع: الذي تكرر فيه الماشية مثل ماء السماء، يقال: كرع في الماء، إذا غابت فيه أكارعته؛ وكذلك نخل كوارع، إذا كانت أصولها في الماء. وأب أبا للشيء، إذا هَيَّأ له أو همَّ به. (ابن دريد، الجمهرة، أب)

٣- اعتنى باللهجات الواردة عن القبائل العربية، ونسبها إلى أهلها. مثلاً جاء في «أبي» وأتى يأتي أثياً ويأتو أتوا حسناً. وأنشد:

يا قوم ما لي وأبا ذؤيبِ كنتُ إذا أتوهُ من غيبِ
يَشْمُ عِظْفِي وَيَمَسُّ ثوبِي كَأَنِّي أَرَبُّهُ بِرَيْبِ

قال أبو بكر: هكذا لغة هذيل، أتا يأتو أتوا. ويقال: ما أحسن أتو قوائم الناقة وأثيها في السير. والأبي: السيل بعينه يأتيك من بلدٍ مطرٍ من غير بلدك. ويقال: أت لمانك، أي سهل له سبيلاً يجري فيه. وذلك السبيل: الآتي. ورجل أبي وأتوي، وهو الغريب. وأتى يؤتي إتياءً في معنى أعطى. والإتاوة: الخراج أو الجزية يؤدّيه القومُ إلى الملك. ويقال: ما أحسن أتاء هذا النخل، أي ما أحسن ثمره، وكذلك الزرعُ. (المصدر نفسه، مادة أتي).

٤- اعتنى بالشواهد القرآنية والحديثية وكلام العرب. مثلاً جاء في «بتك»: بتك الشيء يبتكُه بتكاً، إذا قطعه. وسيف باتك وبتوك، إذا كان صارماً. وفي التثنية: "فَلْيَبْتِكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ". والبتكة: القطعة من كل شيء، والجمع بتك. قال زهير:

حتى إذا ما هوت كَفَ الوليد لها طارت وفي كفّه من ريشها بتك

وكتب الله أعدامه كتباً، إذا ردهم بغیظهم. والعدو مكبوت، والفاعل كاتب. وقد كتب الكتاب يكتبه كتباً، إذا جمع حروفه. وأصل الكتب ضمك الشيء إلى الشيء. وكتبت المزادة وغيرها أكتبها كتباً، إذا حرزتها. والخرزة: الكتبة، والجمع الكتب. وكتبت البغلة أكتبها وأكتبها، إذا ضمنت أشعرها بحلقة. قال الشاعر:

لا تَأْمَنَنَّ فَرَارياً خَلَوْتَ به على قَلْوَصِكَ وَأَكْتُبُهَا بِأَسْيَارِ

وكتبت الكتبية، إذا ضمنت بعض أهلها إلى بعض. ويقال: رجل حسن الكتبة والكتابة. والمكتب: الذي يعلم الكتابة. والمكاتب: الذي يشتري نفسه ويكاتب عليها. وبنو كتب: حي من العرب. والكتاب: سهم صغير يتعلم به الصبيان. قال: والكتاب بالباء والثاء. وبكت الرجل تبكيتاً، إذا وبخته. (المصدر نفسه، مادة بتك).

٥- اعتنى بالإشارة إلى الألفاظ المعربة والدخيلة. مثلاً جاء في «بخت»: والبخت: فارسي معرب، وقد تكلمت به العرب، وهو الجد. و إذا جمعت مثال أضحية وأقضية فرأيت له ليس بمنسوب جاز فيه التشديد والتخفيف، نحو قولك: أضح وأضحى و أمان و أمانى، و إذا رأيت منسوباً مثل

زربية و زرابيَّ شَدَّدت، و قد يُغلظ فيه فيقال: بخت و زراب و بختي. و أنشد: بَخَاتِي قَطَارَ مَدَّ
أَعْنَاقَهَا السَّفْرُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: و يروي: السفر، جمع سفار، و هي الحديدة نحو الحَكْمَة على الفرس. (المصدر نفسه، مادة بخت).

الخاتمة

اهتم العلماء المسلمون بوضع معجم جامع للغة العربية لأن علم اللغة مفتاح العلوم كلّها. بعد أن وضع الخليل بن احمد اساس العمل المعجمي، خطا ابن دريد خطوات رائدة و مكتملة لهذا العمل الكبير فقد جاء بمواد أهملها الخليل و منع استعمالات أجازها الخليل و ضبط نصوصا و مواضع كثيرة انفرد بها و جاء من الشروح و الشواهد و الأمثال ما لا نجده عند الخليل. ذكر ابن دريد الاستعمالات الحديثة المولدة في زمانه و جاء باللفاظ المعربة التي كانت متداولة آنذاك كلغة معتبرة. صارت جمهرة ابن دريد مصدراً هاماً لعلمي غريب القرآن و الحديث. أما منهج الجمهرة هو نظام التقاليد الذي يعدّ أكثر تعقيداً من منهج الخليل و منهج يقوم على اساس الابنية و في مجال علم الاصوات تُعدّ جمهرة ابن دريد مصدراً مهماً من مصادر دراسة اللهجات العربية القديمة فقد ساهمت مقدمته و ابواب الجمهرة في تثبيت هذه اللهجات. بعد ابن دريد هج علماء كثيرون منهجه و اعتدوا على جمهرته في وضع معاجمهم و منهم ابن منظور في لسان العرب. على أيّ حال لَمَّا رأى ابن دريد زهد العصر في الادب و تناقلهم عن الطلب، و عداوتهم لما يجهلون و تضييعهم لما يُعلّمون ارتجل الكتاب المنسوب إلى جمهرة اللغة. و ابتداءً فيه بذكر الحروف المعجمة التي هي اصل تفرّع منه جميع كلام العرب و عليها مدار تأليفه و إليها مآل أبنيته و بها معرفة متقاربه من متباينه و منقاده من جامعهم.

المصادر و المراجع

- آذرنوش، آذرتاش (١٣٦٩)، ابن دريد، دائرة المعارف بزرگ اسلامي، ج٣، تهران.
- ابن خلكان، (١٩٧٧)، وفيات الأعيان، دار صادر.
- ابن احمد الفراهيدي، خليل، (١٩٦٧) العين، بغداد.
- ابن دريد، ابو بكر محمد، (١٣٨٤ ش)، ترتيب جمهرة اللغة، مشهد، الطبعة الاولى، آستانة الرضوية المقدسة.
- بن مراد، ابراهيم، (١٩٨٧) دراسات في المعجم العربي، تونس، ط. الاولى، دار الغرب الاسلامي.
- حموي، ياقوت، (١٩٣٦)، معجم الادباء، بغداد.
- رشاد الحمزاوي، محمد، (١٩٨٦)، من قضايا معجم العربي قديماً و حديثاً، ط. الاولى، دار الغرب الاسلامي.

- سنوسي، مصطفى، (١٩٨٤)، تحقيق و مقدمة علي التعليق من امالي ابن دريد.
- سورتق، محمد، (١٣٤٥ق)، المقدمة الاولي علي جمهرة اللغة لابن دريد، بغداد.
- سيوطي، جلال الدين، (لاتاريخ)، المزهر، دار إحياء التراث العربي.
- الشلقاني، عبد الحميد، (١٩٧١)، رواية اللغة، دار المعارف.
- ضيف، شوقي، (٢٠٠٤) العصر العباسي الثاني، الطبعة السادسة عشرة، دار المعارف.
- المخزومي، مهدي و السامرائي، ابراهيم، (١٩٩٥) تحقيق في كتاب العين للخليل ابن احمد .
- مقدسي، أنيس، (١٩٧٠)، المقصورة الدردييه، مجلة مجمع اللغة العربية، رقم ٤٥، جزء ٢، دمشق.

نقش ابن درید در تدوین فرهنگ لغت

دکتر رمضان رضائی

استادیار زبان و ادبیات عربی دانشگاه آزاد اسلامی واجد تبریز

دکتر یدالله رفیعی

استادیار زبان و ادبیات عربی دانشگاه آزاد اسلامی واجد تبریز

چکیده

بدون تردید «تدوین فرهنگ» در زبان عربی و در تمامی زبان‌ها دارای اهمیت ویژه ای است. در زبان عربی این کار از عصر اسلامی آغاز شد. زبان‌شناسان این دوره نحوی، ادیب و یا مفسر بودند. خلیل ابن احمد فراهیدی اولین کسی بود که به تدوین فرهنگ اقدام کرد. وی کتابش را «العین» نامید. اما دشواری شیوه «العین» در ترتیب حروف باعث شد که برخی از زبان‌شناسان در آسان‌سازی آن شیوه بکوشند. ابن درید از معروف‌ترین کسانی بود که در نوآوری شیوه العین کوشید و در فرهنگ خود به نام «جمهرة اللغة»؛ شیوه‌ای جدید بنا نهاد تا کتابش اولین کتاب لغتی باشد که بر اساس حروف ابجدی مرتب شده است. وی مواردی را در لغت آورد که در کتاب‌های پیشینیان نیامده بود و این یکی از ویژگی‌های فرهنگ اوست. پس از وی زبان‌شناسان جمهرة اللغة را به عنوان مرجعی مهم در تدوین فرهنگ زبان قرار دادند. در واقع ابن درید دانشمندترین شاعران و شاعرترین دانشمندان بود. نقش وی در تدوین فرهنگ زبانی و آسان‌سازی شیوه پیشینیان بی‌نظیر است.

واژگان کلیدی: ابن درید، فرهنگ نویسی، زبان‌شناسی، جمهرة اللغة.

